تفسير كلّ آية بجملة

﴿٢٥٣﴾ هؤلاء الرّسل الذين ذكرنا فريقًا منهم، وقد فضّلنا بعضهم على بعض. فمنهم من كلّمه الله دون سفير كموسى، ومنهم من رفعه الله درجات فوق درجاتهم جميعًا وهو مُحَمَّد ﷺ الذي اختصّ بعموم الرّسالة، وكمال الشّريعة، وختمة الرّسالات. ومنهم عيسى ابن مريم الذي أمددناه بالمعجزات كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص وأيّدناه بجبريل روح القدس. وقد جاء هؤلاء الرّسل بالهدى، ودين الحقّ، والبيّنات الهادية، وكان مقتضى هذا أن يؤمن النّاس جميعًا، ولا يختلفوا ولا يقتتلوا، ولو شاء الله ألّا يقتتل النّاس من بعد مجيء الرّسل إليهم بالآيات الواضحة الدّالة على الحقّ ما حدث اقتتال ولا اختلاف، ولكنّ الله لم يشأ ذلك، ولهذا اختلفوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء الله ما اقتتلوا ولا اختلفوا بل كانوا جميعًا على الحقّ، ولكنّه يفعل ما يريد لحكمة قدّرها سبحانه.

﴿٢٥٤﴾ يا أيّها المؤمنون بالله وباليوم الآخر أنفقوا بعض ما رزقكم الله في وجوه الخير، وبادروا بذلك قبل أن يأتي يوم الحساب، يوم لا تجارة فيه تستعيضون بها عمّا خسرتم، فلا تستطيعون تدارك ما فاتكم في الدّنيا، ولا ينفع فيه بيع ولا صداقة ولا شفاعة من ذي جاه تنقذكم، والكافرون- مانعو الزّكاة- هم الذين يظهر ظلمهم في ذلك اليوم، إذ لم يستجيبوا لدعوة الحقّ.

﴿٢٥٥﴾ الله هو الذي يستحقّ أن يُعبد دون سواه، وهو الباقي القائم على شؤون خلقه دائمًا، الذي لا يغفل أبدًا، فلا يصيبه فتور ولا نوم ولا ما يشبه ذلك لأنّه لا يتّصف بالنقص في شيء، وهو المختصّ بملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك أحد، وبهذا لا يستطيع أيّ مخلوق كان أن يشفع لأحد إلا بإذن الله، وهو - سبحانه وتعالى - محيط بكلّ شيء عالم بما كان وما سيكون، ولا يستطيع أحد أن يدرك شيئًا من علم الله إلا ما أراد أن يعلم به من يرتضيه، وسلطانه واسع يشمل السموات والأرض، ولا يصعب عليه تدبير ذلك لأنّه المتعالي عن النقص والعجز، العظيم بجلاله وسلطانه.

﴿٢٥٦﴾ لا إجبار لأحد على الدّخول في الدّين، وقد وضح بالآيات الباهرة طريق الحقّ، وطريق الضّلال، فمن اهتدى إلى الإيمان وكفر بكلّ ما يطغى على العقل، ويصرفه عن الحقّ، فقد استمسك بأوثق سبب يمنعه من التردّي في الضّلال، كمن تمسّك بعروة متينة محكمة الرّباط تمنعه من التردّي في هوّة، والله سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون ومجازيكم على أفعالكم.

الآية ٢٥٣

درجات الرّسل وأحوال النّاس في اتّباعهم

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ .

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بعد أن ذكر الله تعالى قصّة طالوت وجالوت وداود، وأعقبها بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] ليقيم الدّليل بمعرفة تلك القصص، على أنّ محمّدًا ﷺ من المرسلين الذين أوحي إليهم الوحي المبين لأحوال الماضين.

ذكر تعالى هنا أنّ الرّسل درجات، ميّز الله بعضهم على بعض، بمزايا ومناقب ليست لغيرهم، وأنّ أحوال النّاس عمومًا في اتّباع الرّسل: إمّا مؤمنون وإمّا كفار، وإمّا مسالمون وإمّا متقاتلون، لحكمة ربّانيّة مردّها إلى قضاء الله وقدره.

المعنى العام

يخبر تعالى أنّه فضّل بعض الرّسل على بعض، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾ الذين قصصناهم عليك، وذكرت لك يا محمّد أنّك منهم، ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بخصائص ومناقب لم توجد في غيره. لكنّ هذا التّفضيل إنّما يكون في الجملة من غير تعيين المفضول، لأنّه تنقيص في حقّه وهو ممنوع. ولذلك قال ﷺ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»[2] وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى أَخِي يُونُسَ»[3] فإنّ معناه النهي عن تعيين المفضول، لأنّه غيبة وتنقيص، ذَلِكَ أَنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ مَعْنًى وَاحِدٌ، لَا تَفَاضُلَ فِيهَا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَإِنَّمَا التَّفَاضُلُ فِي تَفْضِيلِ اللهِ ﷻ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بَعْدَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَمَا يَحْدُثُ لَهُمْ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُبَيِّنُ شَرَفَهُمْ وَفَضْلَهُمْ عِنْدَهُ. وقد صرّح ﷺ بفضله على جميع الأنبياء، فقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»[4] لكنّه لم يعيّن أحدًا من الأنبياء بالمفضوليّة لئلّا يؤدّي إلى نقصه، فلا تعارض بين الحديثين.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ وهو موسى عليه السلام في جبل الطور، وسيّدنا محمّد ﷺ حين كان قاب قوسين أو أدنى، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء[5] حيث رأى النّبيّ ﷺ الأنبياء في السّماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله ﷻ.

فنبيّنا محمّد ﷺ خصّه الله تعالى بالدّعوة العامّة، والحجج المتكاثرة، والمعجزات المستمرّة، والآيات المتعاقبة بتعاقب الدّهر، والفضائل العلميّة والعمليّة الفائتة للحصر. والإبهام لتفخيم شأنه، كأنّه العلم المشهور المتعيّن لهذا الوصف المستغني عن التّعيين. وقيل: إبراهيم، خصّه بالخلّة التي هي أعلى المراتب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.

(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي سعيد، حديث رقم: ٦٩١٦، كتاب: الديات، باب: إذا لطم المسلم يهوديًّا عند الغضب.

(٣) رواه أبو بكر الكلاباذيّ في بحر الفوائد، باب: حديث آخر، ج١، ص٨٠.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: ٤١٨٩، كتاب: تواريخ المتقدّمين من الأنبياء والمرسلين، باب: ذكر أخبار سيّد المرسلين وخاتم النّبيّين محمّد، الحديث إسناده صحيح.

(٥) وهو حديث رواه الشيخان وفيه أنّه ﷺ رأى آدم في السماء الأولى، ويحيى وعيسى في السماء الثانية، ويوسف في الثالثة، وإدريس في الرابعة، وهارون في الخامسة، وموسى في السادسة، وإبراهيم في السابعة، عليهم الصلاة والسلام، هذا هو مراد ابن كثير رحمه الله.

ونقول: ليس هذا هو المراد بالدرجات التي ذكرت في الآية، بل هي درجات الكرامة والفضل، فمعنى الآية: أي: رفع بعضهم درجات في الكرامة ورفعة المنزلة كما قال ابن جرير الطبريّ، ولا علاقة لهذا التفضيل بوجود أحدهم في سماء والآخر في سماء أخرى أعلى منها، فإنّ عيسى الموجود في السماء الثانية أفضل من هارون الموجود في السماء الخامسة ومن إدريس ومن يوسف أيضًا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي الحجج والدّلائل القاطعات على صحّة ما جاء بني إسرائيل به، من أنّه عبد الله ورسوله إليهم ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أيّده الله بجبريل عليه السلام، ثمّ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لو أراد الله ما اقتتلت الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها رسلهم. فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل كما أن الرسل متفقين على كلمة الحقّ، ﴿وَلَـٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أي ولكنّ الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعّب مكاتبهم وأهوائهم، فمنهم من ثبت على الإيمان ومنهم من حاد وكفر. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أي لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يتقاتلون ولكنّ الله حكيم يفعل ما فيه المصلحة، وكلّ ذلك عن قضاء الله وقدره، فهم مُصَرّفون بالمشيئة الأزليّة، مسلوبون من الاختيار الذي عليه المدار وبه الاعتبار، فهو الفعّال لما يريد ولهذا قال: ﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لحكمة قدّرها.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآية:

١. دين الأنبياء واحد ألا وهو الإسلام. لا نفرّق بين أحد منهم في الدّين، و لكن هناك تفاضل فيما بينهم بالمزايا والفضل والمنزلة عند الله تعالى.

٢. تفاضل الرّسل فيما بينهم بحسب تحقّقهم بأسماء الله تعالى، وجهادهم، وصبرهم وما أهّلهم الله تعالى له من الكمال.

٣. الرّسل المذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولًا، كلّهم أنبياء ورسل.

٤. الرّسل أفضل من الأنبياء، وأفضل الرّسل الخمسة والعشرين المذكورة أسماؤهم في القرآن الكريم.

٥. أفضل الرّسل من بين الخمسة والعشرين، أولو العزم، وهم خمسة: ساداتنا نوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وسيّدنا محمّد ﷺ.

٦. سيّدنا محمّد ﷺ هو أفضل الرّسل على الإطلاق، وهو إمام المرسلين، وأفضل مخلوق خلقه الله تعالى على الإطلاق.

٧. صفة الكلام لله تعالى، صفة قائمة بذات الله تعالى، حيث كلّم سيّدنا موسى في الطّور، وكلّم سيّدنا محمّدًا ﷺ في الملكوت الأعلى في رحلة المعراج.

٨. الكفر والإيمان والهداية والضّلال والحرب والسّلم، كلّ ذلك تبع لمشيئته تعالى وحكمته.

٩. ذمّ الاختلاف في الدّين مصدر شقاء وعذاب.

١٠. الصّفات الواجبة في حقّ الأنبياء: الصّدق والأمانة والتّبليغ والفطانة.

سيّدنا محمّد سيّد النّاس ﷺ وهو صاحب الشّفاعة الكبرى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: ((أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ. فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ.

فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.

فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ.

فيأتونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟

فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى))[1].

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٩٤، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنّة منزلة فيها.

مراتب المسلمين:

تتفاوت مراتب المسلمين بحسب معرفتهم بربّهم فمنهم:

- من هو **سابقٌ بالخيرات** بإذن الله: وهم الذين يؤدّون الواجبات والمستحبّات، ويتركون المحرّمات والمكروهات.
- ومنهم **مقتصد**: وهم الذين يؤدّون الواجبات ويتركون المحرّمات، ولكن يقتصدون في فعل المستحبّات وترك المكروهات.
- ومنهم **ظالم** لنفسه: وهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا. ويشهد لهذا التّقسيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[1].

وعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْد ﷺ، عَنِ النّبيّ ﷺ فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: "﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ قَالَ: ((كُلُّهُمْ فِي الْجَنَّةِ))". [2]

وأوضح القرآن الظّالمين لأنفسهم من أمّة سيّدنا محمّد ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

والتّقسيم الذي جاء في سورة الواقعة هو للنّاس جميعًا، مؤمنهم وكافرهم. فالسّابقون: هم المقرّبون، ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾[4].

وأصحاب الميمنة (اليمين): هم قسما المقتصدين والظّالمين لأنفسهم، وهم ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾[5].

ويشهد للتّفاضل قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[6].

ويكون الارتقاء في دار النّعيم بحسب الدّرجة التي نالها من كان من السّابقين أو من أهل اليمين، ويكون تنازل دركات أهل العذاب بحسب جرائمهم وإساءاتهم ومعاصيهم.

من أسماء الله الحسنى: الرّافع

شرح الاسم: الرّافع

- عظيم الصّفات المستحقّ لدرجات المدح والثّناء، وليس لأحد من خلقه هذه الصّفة.
- هو المُعلي للأقدار، وهو الرّافع يرفع من يشاء من خلقه، ويُعلي مكانته ويزكّي قدره ويقدّم ذكره، فلا يرتفع إلا من رفعه الله، وأرفعهم قدرًا رسول الله محمّد ﷺ.
- هو الذي يرفع الأولياء فينصرهم على الأعداء. ورفع مقامهم بالحياة بخضوع القلوب لهم، واحترام العالم لأشخاصهم ولو كانوا فقراء ضعفاء.
- هو الذي يرفع الصّالحين إلى أعلى عليّين، ورفع شأنهم بعد مماتهم، فترى القلوب تحنّ إليهم وتحنو عليهم وتزورهم وتعظّمهم.
- هو الذي رفع السّماء بغير عمد، ورفع الغمام على متن الهواء، ورفع الطّيور في الفضاء.

التّعلّق باسم الله الرّافع

- أن تكون رفيع القدر واسع النّفس، راضيًا بما قسمه الله لك إذا أنعم الله تعالى عليك بنعمة من نعم الدّنيا تنعّمت

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٢) رواه البيهقيّ في البعث والنشور، عن أسامة بن زيد، حديث رقم: ٥٩، باب: قول الله تعالى: ﴿ثمّ أورَثنَا الكِتَابَ﴾، الحديث صحيح مقطوع.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢. (٤) سورة الواقعة، الآية: ١٣-١٤. (٥) سورة الواقعة، الآية: ٣٩-٤٠. (٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

بها، وإذا قبضها عنك لا تطمح إليها ولا تجعل همّك بها.

- أن ترفع همّتك عن الخلق، وتؤدّي عبادتك لله، فلا تُسمع أو تُري أعمالك الصّالحة لأحد من الخلق، أي أقول ما يُرضي ربّي لا أقول ما يُرضي النّاس، وأفعل ما يُرضي ربي لا أفعل ما يُرضي النّاس.
- أن تسعى لتكون من الأولياء من السّابقين السّابقين، ولا تكتفي أن تكون من عموم أهل اليمين. قال ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللهمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[1].
- الرّافع قدرك على قدر همّتك: من عانى الشأن الصّغير كان شأنه صغيرًا، ومن عانى الشّأن الكبير كان شأنه كبيرًا. وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما أقامك، كأن يقيمك في نشر الأخلاق المحمّديّة ونشر هذا الدّين، ونشر الصّلاة على النّبيّ ﷺ، وفي نشر الكلمة الطيّبة ونشر معاني لا إله إلّا الله.
- أن يتأدّب العبد مع الله تعالى فيما رفعه به، فإن أساء الأدب فقد يخفضه الله تعالى بعد أن رفعه. إذا رفعك الله بالعلم أو بالمال والجاه، فلا تتعالَ على غيرك وترى نفسك أنّك أفضل منهم فتُعاقب. واعلم أنّ من تذلّل لله تعالى في دنياه، رفعه الله تعالى في عقباه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[2].

في الأمر والنّهي

في الأخلاق والآداب

التخلّق باسم الله تعالى الرافع:

أن تتّبع الأمور التي ترفع شأنك وقدرك، ومنها العلم والتّقوى. وأن تكون في خدمة النّاس وقضاء حوائجهم، وهذا يرفعك عند النّاس وعند الله.

أن لا تقف في وجه من أراد الله رفعته، لأنّ ذلك سوف يزيده رفعة ويزيدك ذلة، بل ترضى بقسمة الله تعالى فيرفع قدرك ويُعلي شأنك.

أن تكون عالي الهمّة، همّك أمة النّبيّ ﷺ. تعلّم من رسول الله ﷺ عندما كان يقول: **يا ربّ أمّتي أمّتي**- أمّة الدّعوة-.

الحكمة: سَوابِقُ الهِمَمِ لا تَخْرِقُ أَسْوارَ الأَقْدارِ[3].

في السّيرة والشّمائل

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ وَقَالَ: «أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»[4].

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٦٧٩، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٠.
(٣) الحكم العطائيّة، لعطاء الله السكندري، رقم ٣.
(٤) رواه أحمد في مسنده، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: ١٥١٥٦، مسند: المكثرين من الصحابة، مسند: جابر بن عبد الله

إنّ القول فيما أعطي إدريس عليه السلام، من الرّفعة التي نوّه الله بذكرها فقال: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾[1] والقول في أنّ نبيّنا محمّدًا ﷺ أُعطي أفضل وأكمل من ذلك; مردّه إلى أنّ الله تعالى رفع ذكره في الدّنيا والآخرة فقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[2]. فليس خطيب ولا شفيع ولا صاحب صلاة إلّا ينادي بها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ محمّدًا رسول الله. فقرن الله اسمه باسمه في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك مفتاحًا للصّلاة المفروضة، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ، فَقَالَ: إِنَّ رَبِّي وَرَبَّكَ يَقُولُ لَكَ: كَيْفَ رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قَالَ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي»[3] وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا فَرَغْتُ مِمَّا أَمَرَنِي اللهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْتُ يَا رَبِّ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا وَقَدْ كَرَّمْتَهُ جَعَلْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَمُوسَى كَلِيمًا، وَسَخَّرْتَ لِدَاوُدَ الْجِبَالَ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ وَالشَّيَاطِينَ، وَأَحْيَيْتَ لِعِيسَى الْمَوْتَى فما جعلت لي؟ قال أو ليس قَدْ أَعْطَيْتُكَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنِّي لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي وَجَعَلْتُ صُدُورَ أُمَّتِكَ أَنَاجِيلَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ظَاهِرًا وَلَمْ أُعْطِهَا أُمَّةً، وَأَعْطَيْتُكَ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ»[4].

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، قال: "مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعَنَّهُ وَلَيَنْصُرَنَّهُ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أُمَّتِهِ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ ; لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَتَّبِعُنَّهُ. وَقَدْ بَشَّرَتْ بِوُجُودِهِ الْأَنْبِيَاءُ حَتَّى كَانَ آخِرَ مَنْ بَشَّرَ بِهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَذَلِكَ بَشَّرَتْ بِهِ الْأَحْبَارُ وَالرُّهْبَانُ وَالْكُهَّانُ، كَمَا قَدَّمْنَا ذَلِكَ مَبْسُوطًا، وَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ رُفِعَ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ حَتَّى سَلَّمَ عَلَى إِدْرِيسَ عليه السلام، وَهُوَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، ثُمَّ جَاوَزَهُ إِلَى الْخَامِسَةِ، ثُمَّ إِلَى السَّادِسَةِ، فَسَلَّمَ عَلَى مُوسَى بِهَا، ثُمَّ جَاوَزَهُ إِلَى السَّابِعَةِ فَسَلَّمَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ بِهَا عِنْدَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ جَاوَزَ ذَلِكَ الْمَقَامَ، فَرُفِعَ لِمُسْتَوًى يُسْمَعُ فِيهِ صَرِيفُ الْأَقْلَامِ، وَجَاءَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى، وَرَأَى الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكُبْرَى، وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ، وَشَيَّعَهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ خَازِنُ الْجِنَانِ، وَمَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، فَهَذَا هُوَ الشَّرَفُ، وَهَذِهِ هِيَ الرِّفْعَةُ، وَهَذَا هُوَ التَّكْرِيمُ وَالتَّنْوِيهُ وَالْإِشْهَارُ وَالتَّقْدِيمُ وَالْعُلُوُّ وَالْعَظَمَةُ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللهِ أَجْمَعِينَ".

وَأَمَّا رَفْعُ ذِكْرِهِ فِي الْآخِرِينَ، فَإِنَّ دِينَهُ بَاقٍ نَاسِخٌ لِكُلِّ دِينٍ، وَلَا يُنْسَخُ هُوَ أَبَدَ الْآبِدِينَ، وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَالنِّدَاءُ بِالْأَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. وَهَكَذَا كُلُّ خَطِيبٍ يَخْطُبُ لَا بُدَّ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي خُطْبَتِهِ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ حَسَّانَ.

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ ... مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ ... إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ
وَشَقَّ لَهُ مِنَ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ[5]

(١) سورة مريم، الآية: ٥٧.
(٢) سورة الشرح، الآية: ٤.
(٣) رواه ابن حبّان في صحيحه، عن أبي سعيد الخدريّ، حديث رقم: ٣٣٨٢، كتاب: الزكاة، باب: ذكر الإخبار عن إباحة، تعداد النعم للمنعِم على المنعَم عليه في الدنيا.
(٤) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن أنس، باب: سورة الشرح، الآيات: ١-٨، ج٨، ص٤١٦.
(٥) ذكره إبن كثير في البداية والنهاية، باب: أعطي إدريس عليه السلام الرفعة، ج٩، ص٣٧٣-٣٧٤.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: تَلَا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[1] الْآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوؤُكَ»[3].

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ»[4].

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٨.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٢٠٢، كتاب: الإيمان، باب: دعاء النّبيّ ﷺ.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن جابر بن عبد الله، حديث رقم: ٦١٤، كتاب: الأذان، باب: الدعاء عند النداء.